الشــعر الخطابي

للدكتور محمد مندور

يريد الأستاذ السيد قطب أن يجعل مما سميته الهمس فى الشعر نوعاً من الأدب يتميز بالإحساس الذى يغذيه فهو شعر الحنين أو « الحنية » كما يقول ، وهو يحذر القراء من آرائى لخضوعها لطبع خاص أقرب إلى المرض منه إلى الصحة ، ولكننى بحمد الله لست مريضاً ، ولا أذكر أننى مرضت يوماً ما ، وأنا على العكس سليم الجسم صلب البناء متمتع بكل قواى الجسمية والعقلية ، وشخصي بعد ليس موضع الحديث ، والهمس فى الشعر ليس « الحنية » ، ولا هو خاص بنوع من الإحساس ، وإنما هو مذهب فى الفن ، مذهب عام لا يتقيد بمادة

أما تحذير القراء من آرائى فهذا ما أدعو إليه أنا أيضاً لأننى أمقت مبدأ « السلطة » principe d'authorité ، وأعرف ما أصاب الإنسانية من أضراره المميتة خلال القرون الوسطى يوم كان الناس يؤمنون بآراء أرسطو لأنها صادرة عن المعلم الأول ، لا لما تقوم عليه من بينات . ونحن فى الشرق أحوج ما نكون إلى تحطيم هذا المبدأ الذي يشل عقول الناس فتستسلم لآراء هذا أو ذاك ، والأمر فى المسائل الفنية أشد خطورة ، وذلك لأن الأذواق الفنية لم تتكون بعد لسبب واضح هو جهلنا بالآداب الأجنبية أو معرفتنا بها معرفة أضر من الجهل بها ، وليس من سبيل إطلاقا إلى الادعاء بأن أدبنا العربى يكفى لتكوين ذوق أدبى صحيح

وإذن فأنا لا أريد أن أملى ذوق على أحد ؛ وذلك لأن الذوق وإن يكن من أعمق ملكاتنا البشرية فى إدراك مواضع الجمال والقبح ، إلا أنه لا يمكن أن يصبح وسيلة مشروعة للمعرفة التى لدى الغير ، إلا إذا علل بأسباب عقلية وفنية ونفسية تستطيع أن توحى بمثل ما نحس به ، وإلا أصبح ما نقول ادعاء كاذباً إن لم يكن نصباً .

ولقد حاولت تمييز « الشعر المهموس » بمعارضته « بالشعر الخطابى » ، ولكننى فيما يظهر لا أزال محتاجاً إلى مزيد من الإيضاح . وها أنا اليوم أتناول قصيدة للأستاذ محمود حسن إسماعيل ، وجدتها مصادفة فى عدد ٧ يونية سنة ١٩٤٣ من « الرسالة » بعنوان « حصاد القمر »

النغمات والطبقات لكثيرة متنوعة تنوعَ النفوس ، بل تنوعَ الحالات النفسية فى الإنسان الواحد . وإننا لنعجب بالمتنبى مثلاً حين يجهر بأعلى صوته :

أفكر فى معاقرة المنايا وقودِ الخيل مشرفة الهوادى
زعيم للقنا الخطى عزمى بسفك دم الحواضر والبوادى
إلى كم ذا التخلف والتوانى وكم هذا التمادى فى التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالى ببيع الشعر فى سوق الكساد

كما نعجب به حين يهمس فى حنين :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكياً

أو حين يهمس فى ألم مرير :

وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا أعوز المطلوب قل المساعد

فهو هو المتنبى فى جهره وهمسه ، ذو الطابع الواضح ، والصدق الأصيل

وبهذه الرحابة يجب أن ننظر إلى أنماط الفنون ، وأنماط النفوس فى هذه الحياة التى تتسع للجميع ، وتحفل بالجميع ، ولا تتطلب منهم إلا التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، وليكن فى هذه الحدود الرحيبة ما يكون

* * *

فأما النماذج البشرية ، التى يهفو إليها الأستاذ « مندور » وبعض زملائه فى هذه الأيام ، فيمهلنى القراء أسبوعاً آخر لإدارة الحديث عليها ، بعد أن استغرق المقال كل المجال !

(حلوان) سيد قطب

ملاحظة : كنت قد ذكرت — نقلا عن الأستاذ مندور — أن قصيدة « ترنيمة سرير وقصيدة « يا نفس » لشاعر واحد هو « نسيب عريضة » وقلت : إن بينهما فارقاً بعيداً فالأول شعر يستحق الحب والإعجاب ، والثانية لا تبلغ أن تكون شعرا

وفى عدد الثقافة رقم ٢٣٠ كتب حضرة الفاضل « عزى يوسف » يصحح ما ذكره الأستاذ مندور من نسبة « ترنيمة سرير » إلى نسيب عريضة ويقرر أنها للشاعر « إلياس فرحات » وأنا أرجح هذا ، للفارق البين بين روحى القصيدتين الذى أشرت إليه فى المقال السابق

الأستاذ محمود حسن إسمعيل يذكرني دائماً بالمتنبي ، فى شعره رنين قوى تجده فى بسطة أوزانه وضخامة ألفاظه بل فى بعض صوره الشعرية المجتلبة على نفس النحو الذى كان المتنبي يصطنعه متخذاً لأبى تمام . ولكنى أبادر فأقرر أن شعر المتنبي غير شعر محمود إسمعيل فى معدنه النفسي وفى رؤيته الشعرية

شعر المتنبي كشعر محمود إسمعيل من النوع الخطابي ولكن شاعر الحمدانيين كان شاعراً كبيراً . وأما صاحب « هكذا أغنى » فشاعر يعيبه أمران خطيران :

١ — أولهما أن المتنبي نفس قوية عاتية متماسكة . عاطفة المتنبي مغلقة مركزة عميقة ولهذا قلما تلوح كاذبة . عاطفة المتنبي نار داخلية لا تراها وإن ألهبت اللفظ أو أوقدت الصورة . وأما إحساس محمود حسن إسمعيل فمفضوح ؛ ويأبى شاعرنا إلا أن يزيده افتضاحاً بقصاصات الدر التى يعلقها فوق قصائده . وفى هذا ابتذال ، للنفس عنه نفرة . عاطفة محمود إسمعيل « مطرطشة » حتى لتلوح « سراباً عاطفياً » pathetic fallacy كما يقول نقاد الإنجليز

٢ — ثانيهما اضطراب الرؤية الشعرية vision poetique عند محمود إسمعيل ، بل إننى لأخشى ألا يكون له حقل شعرى على الإطلاق ، وهذا أمر يتضح لمن يراجع صوره فى أية قصيدة من قصائده ، فإنه لا بد واجد بينها من التنافر ما يقطع بأنه لا يرى الأشياء رؤية شعرية صحيحة . تراه يجمع بين صور لا يمكن أن تكون وحدة الموصوف ، ولو أنه حرص على الرؤية الشعرية الصادقة لرأيت التجانس الذى يعوزه . وأنا بعد أرجح أنه يلتمس الصور من ذاكرته لا مما يراه ببصره أو يدركه بحسه

ونحن عند ما لا نجد لدى الشاعر العاطفة المتماسكة والرؤية الشعرية لا نستطيع أن نحكم بتفوق فنه ؛ وذلك لأن الرنين الخطابي مهما بلغت قوته لا يمكن أن يسمو بالشعر . فلغيرى إذن أن يعجب بقوة أسر محمود اسماعيل واستحصاد لفظه وغرابة صوره . وأما أنا فما دمت لا أستطيع أن أدرك ببصرى حقيقة ما يصف ولا أن أسكن إلى نوع إحساسه ، فإننى لا أتردد فى رفض شعره وتفضيل (نعيمه) أو (عريضة) عليه وذلك لصدق شعراء المهجر فى فنهم

وأنا بعد مؤمن بأن محمود اسماعيل يستطيع أن يصبح شاعراً كبيراً جداً وذلك لأنه يملك هبتين لا شك فيهما

١ — أولاهما روح الشعر . روح غفل ولكنها قوة من قوى الطبيعة . قوة تحتاج إلى التثقيف الصحيح . ولو جاز لى أن آمل من هذا الشاعر الإصغاء إلى موضعى النقص الكبير اللذين أشرت إليهما فيما سبق لرجوت أن نجد فيه شاعراً يعتز به عصرنا

٢ — وثانيهما قدرته على الانفعال ، وفى هذا ما يلهب الحس فيدرك المرء بقلبه ما لن تدركه العقول . وما يحتاج إليه محمود اسماعيل لاستغلال قدرته إنما هو نوع من النظام يركز به إحساسه ويرد ما فيه من فضول

ثم إننى أريد أن يطمئن الأستاذ قطب إلى أن أحكامى على أدباء المهجر ليست متسرعة ولا هى عن جهل ، فقد قرأت الكثير مما كتب وإن لم أتحدث عنه ؛ وأمر اشتغالى بالدكتوراه حدث عارض لم يستوعب قط كل وقتى ، وأنا لا زلت عند رأيى فى أدب الحكيم ومحمود طه وغيرهما مع تحفظ واحد هو أننى اقتصرت فى مقالاتى على كتب بعينها ليكون النقد موضعياً ومن ثم منتجاً . ولقد قرأت لكل كاتب معظم كتبه الأخرى فوجدت الخصائص التى ذكرتها واضحة وإن تكن ثمة اتجاهات أخرى تحتاج إلى علاج خاص كتصوير الحكيم لبعض الشخصيات تصويراً ناجحاً فى « عودة الروح » وكاستخدامه للميوس فى « أهل الفن » ، ولكن أدبه كما قلت فى جملته أدب فكرة ، أدب رمزى allegorique

وكذلك الأمر فى حديثى اليوم عن محمود اسماعيل هذا الحديث الذى لا أبغى من ورائه لحاجة وإنما أبغى الخير ، خير الشاعر وخير أدبنا الجديد . فأحكامى عنه تستند إلى قراءة شبه شاملة لما كتب ، وإن كنت سأكتفى اليوم بنقد قصيدة واحدة من قصائده حرصاً على الدقة

القصيدة كما يقول الشاعر فى بطاقته وحى سياحة قروية فى ليلة من ليالى الحصاد ... » وها هو شاعرنا يبدأ بوصف الحقل : « سيان فى جفنه الأغفاء والسهر » وإذن فنحن فى حالة

هيام شعرى تستوى فيه اليقظة والنوم . نحن إن أردت فى حلم يقظة « نعسان يحلم والأضواء ساهدة » وهذا لا ريب جو الإلهام الشعرى ، ولكنه جو قد قيد الشاعر ؛ ونحن لا يعنينا منه صدقه أو تصنعه ، فالشاعر يدعونا إلى هذا الجو وقد أعاننا على أن نحيط أنفسنا به لنخلق فيها جواً مشابهاً وننظر مع الشاعر فماذا نرى : نرى أن السنابل قد نامت واستيقظ القمر فإذا بنا أمام مقابلة مصنوعة ، لأننا لا نرى نوم السنابل بوضوح ولا يقظة القمر . القمر الذى ينشر الأحلام . وهذا يسلمنا إلى ملاحظة عامة خطيرة على شعر محمود اسماعيل وهى مصدر ما فيه من تنافر وأعنى بها « تشخيصه » للأشياء ؛ والتشخيص لا ريب من وسائل الفن القوية ، ولكنه لا يمكن أن يكون مجرد عبث أو مهارة ، بل من الواجب أن تمليه الأشياء إملاء يقربه الفن وقد مسه بجناحه فإذا به كالحقائق . والفن إلى حد بعيد إيهام ، إيهام بالخلق ، خلق واقع شعرى ، فهل نجح الشاعر فى ذلك ؟

إننى أنظر فأرى « قلب النسيم ولهان ينفطر الأضواء » وأرى « السناقد مال جاثياً » وأرى « نخلة قد أطرقت بتلعة » وأرى ظل النخلة كأنه «مضطهد» ، ثم أرى « الدوح نشواناً » ومع ذلك يدعونا الشاعر إلى أن نخشع إن مررنا بالدوح النشوان . ما هذا التنافر ؟ « لماذا ينفطر قلب النسيم ولهاً بالأضواء » ، أهذا تجسيم لإحساس الشاعر ؟ أهو تصوير لرقة النسيم تصويراً مجتلباً ؟ و « لماذا يجثو السنا » وهو يحنو على الشاعر وينساب إليه من السماء ؟ ثم إن الجو كله جو أحلام هادئة فيها لا ريب حزن خفيف melancholie ومع ذلك فجأة نرى الدوح نشواناً . وكل هذا تخبط فى الرواية الشعرية أو انعدام لها . ومن عجب أن تجد وسط هذا التنافر الكاذب البيت الرائع بتصويره :

إن هب نسم بها خيلت ذوائبها   أناملاً مرعشات هزها الكبر

وأن يجاور هذا التصوير الجيل تشبيهه لظل النخلة « بمضطهد » وأغصان الدوح بأشباح تائهة غاب عنها الرفيقان « الركب والسفر » وقد نزل على الدوح ضيفان « الليل والقدر » ليتم الازدواج الكاذب : الليل والقدر والركب والسفر . أما الليل فنستطيع أن نفهمه ، ولكن ما شأن القدر هنا ، وما الرأى فى « غياب السفر » كناية عن ثبات الدوح وعدم تحركه . قد يكون فى غياب الركب ما يشعر بالوحشة ولكننى فى الحق لا أدرك العبارة عن السكون بغياب السفر . والأغصان « مبهورة ذاهلة » ولكنها مع ذلك قد تكون « منتشية بشجو الرياح » وما أريد أن أدركه هو وضع تلك الأغصان . كيف كانت أو كيف رآها الشاعر . « ذاهلة أم منتشية » أننى لا أطيق ما يلقيه الشاعر فى نفسى من عجز عن إدراك ما رأى

ثم إن القمر « هيمان يحمل وجد الليل أضلعه » وقديماً قاتل النقاد أبا تمام لقوله « ماء الملام » وثار به الآمدى إذ وصف حمرة الخدين بـ « ملطومة الخدين بالورد » فماذا يقول المسكين الآمدى لو سمع محمود اسماعيل يتحدث عن « أضلع القمر »

وأنا لا أريد أن أطيل فقد أبنت بالأمثلة السابقة عما أريد من « الرواية الشعرية » ؛ وأما «طرطشة» العاطفة فليست واضحة فى هذه القصيدة الوصفية وضوحها فى قصائده العاطفية وهى كثيرة بديوانه « هكذا أغنى » ومع ذلك نجد فى هذه القصيدة أيضاً كثيراً من « التأوه » و « الآهات » و « الكبد » و « كبدى » و « يا كبدا » وما إليها

أنظر مثلاً إلى قوله يخاطب القمر :

« قلب كقلبك مجروح » . وقوله لنفس المخاطب : « إن العذاب الذى أضناك فى كبدى » ثم حدثنى عما تستطيع أن ترى من جروح فى قلب القمر الهادئ البارد الحالم الحزين حزناً رفيقاً لا يعرف الدماء . ثم ما هذا الضنا الآخذ بكبد الشاعر وكيف يوحى به القمر ؟ أليس هذا إسرافاً معيباً ووضعاً للاحساس فى غير موضعه ؟

« الله أكبر ! يا ابن النيل ... يا كبدا » . أو ما تحس بنفرة نفسية من « يا كبدا » هذه . وكيف تخاطب القمر « بيا كبدا »

وبعد فأنا لا أدرى كيف يجوز لنا أن نضع هذا الفن الذى نرده اليوم فى مستوى فن شعراء المهجر للرهف القوى المباشر . كيف نقارن هذا الضجيج بهمسهم الفنى ؟ وأما عن النثر فما أظن